صعبة للغاية. ومرّة أخرى، تشتمل على ادّعاء يميّز وجهة نظر سوسير في اللغة بشكل جذري من وجهات نظر معاصريه وأولئك الذين سبقوه مباشرة في حقل الدراسات اللغوية. وتبدو نظريّة سوسير في اللغة مثل النظرية المعمارية التي تظهر قطعة الآجر المفردة بموجب منطقها إلى الوجود عندما تبرز البناية كاملة في مكانها.

وقد تبدو هذه الفكرة أقلّ تناقضاً إذا ما فكّرنا بتشبيه آخر كان سوسير مولعاً باستخدامه، ألا وهو مسألة الألعاب. وليست لعبة الشطرنج فعّالية تطوّرت نوعاً ما مع الاستخدام المستقلّ المسبق للبيادق (الجندي والفيل والفرس وقطع الشطرنج الأخرى). والشطرنج لعبة متكاملة في حدّ ذاتها وإن هذا الكمال هو الذي يمنح القطع المنفردة أدوارها المستقلّة لكنها معتمدة بعضها على بعض، ومن دون الجنود أو الفيلة أو من دون أي من العناصر المكوّنة الأخرى، يصبح الشطرنج لعبة مختلفة، ولكن الأمر الأكثر أهمية هو أن الجندي أو الفيل سيصبح مجرّد شكلٍ منحوتٍ مزيّنٍ ذا شكل معيّن من دون اللعبة: ولن تكون قطعة شطرنج، وليس لقطع الشطرنج وجود خارج سياق اللعبة. وبالمقياس نفسه، يرى سوسير أن ليس هناك إشارة لغوية خارج سياق اللغة. وهكذا فإن مفهوم سوسير عن اللغة كلّي بشكل أساسي: ولا وجود للأجزاء المكوّنة بشكل مستقل عن ذلك الكل.

والسؤال الآخر الذي تطرحه فكرة سوسير عن البنية اللغوية هو الآتي: «إذا كانت لغتنا بنية، إذاً بنية ماذا بالضبط؟» وجواب سوسير على هذا السؤال هو الآخر صعب. فقد تصوّر اللغة كونها في آن واحد بنية للعمليات الذهنية لدى الأفراد الذين يستعملونها، وكذلك بنية للعمليات التواصلية التي بوساطتها يؤدي مجتمع ما وظيفته كونه كياناً حضارياً. لذلك فإن اللغة تأتي على درجة تفوق المستوى الفردي بشكل [illegible] المجتمع وتعتمد [illegible]

نظر سوسير - يكمن في فشلها التام في التمييز بين الكلام والقول. علاوة على ذلك، لا بدّ أن الفشل نفسه - إذا كان سوسير على حق - تسبّب في قصور المفهوم الغربي التقليدي عن كلمات كونها «أصواتاً لها معنى» (حسب تسمية أرسطو «الصوت المعنوي»)، لأنّ الأصوات تعود إلى القول وليس إلى البنية التي هي الكلام.

تثير فكرة سوسير مباشرةً سؤالين عن اللغة كونها بنية. أوّلهما: ماذا نقصد بكلمة بنية؟ وفي محاولتنا الأولى ربّما نجيب: نقصد بالبنية المعنى نفسه عندما نقول إن البناية عبارة عن بنية، وربّما لو رفعنا حجراً واحداً، لن يسقط الصرح برمّته فوراً. ولكننا عندما رفعنا شيئاً قد قمنا رغم ذلك بتغيير في الهيكل. ونتيجةً لذلك، ستبدأ الشروخ بالظهور، لأن الحجر الواحد يحتاج إلى حجر آخر يسنده. وبهذا المعنى، نجد كلّ بناية متفرّدة ولا نجد بنايتين لهما البنية نفسها. والتغيير في بنية واحدة من البنايات يؤثّر في تلك البناية وحدها ولا يؤثّر في غيرها. ويطبّق سوسير الأمر نفسه على اللغة. (الإشارة اللغوية في اللغة الفرنسية arbre تعود إلى نظام بنيوي مختلف تماماً عن الإشارة اللغوية في اللغة الإنجليزية tree وتعني «شجرة» برغم أن القواميس تخبرنا أن الكلمتين «تعنيان الشيء نفسه»).

وتعطي المقارنة والتشبيه مع البناية، على أية حال، مقاربة مضللة تجاه فكرة سوسير عن البنية اللغوية (أو «النظام» وهو المصطلح الذي كان سوسير يستخدمه دائماً)، فهي مضلّلة لأننا من الطبيعي أن نفكّر بالبناية كونها هيكلاً مكوّناً من وحدات موجودة مسبقاً: مثل الآجر والألواح والجسور والمواد الأخرى. ولكن السمة الحاسمة في البنيوية عند سوسير تكمن في الفكرة القائلة إن البنية ذاتها تخلق الوحدات وعلاقتها مع بعضها بعضاً. لذلك عندما نفكّر بالبيت الذي يشيّد برصف الحجر الواحد جنب الآخر يعطينا فكرة عن